

سفارة السلطان صلاح الدين الأيوبي إلى الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور

عبد الهادي التازي

قبل عشرين سنة قدّمتُ للمؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام الذي انعقد برحاب الجامعة الأردنية بحثاً أتيتُ فيه على عددٍ من الوثائق مما كنت توفرت عليه آنذاك⁽¹⁾، ومنذ ذلك التاريخ وحتى كتابتي حول السفارات التي وصلت من المشرق إلى المغرب أثناء الحروب التي واجهت المسلمين بالأفرنج، منذ ذلك الوقت وأنا أشعر في نفسي بأنّ «الأمر يحتاج إلى متابعة» على حدّ التعبير الذي قلته في موسوعي حول العلاقات الدولية للمغرب⁽²⁾...

وإني لأحمد الله على أن ثنّى لي الوَسَاد ورزقني من الوقت ما مكنتني من أن أضيف هذه المعلومة التي أرجو أن أوضح بها ما أبهمته وأصحح ما أخطأت فيه. كما نعلم جميعاً فإنّه كما لم تنقطع العلاقات الثقافية بين المشرق والمغرب على مرّ الزمن، وخاصةً في العصر الوسيط⁽³⁾، كذلك وجدنا أنّ العلاقات السياسية ضلّت متسلسلة الحلقات على ما تشهد بذلك المصادر التاريخية سواء منها الموجودة هنا في المغرب أو هناك في المشرق.

وسنقتصر في بحثنا هذا على تناول فترةٍ محدودةٍ تتصل بالحروب الصليبية الثالثة⁽⁴⁾.

ومنذ البداية أريد أن أرفع حيفاً أوقعه الكونت دوماص لان تري (De Mas Latrie) على المغاربة حول ما ادّعاه في تأليفه الضخم حول (العلاقات بين عرب إفريقيا وبين المسيحيين) من أنّ بلاد المغرب كانت لا تكترث بما كان يجري في الساحة المشرقية⁽⁵⁾. لقد كان الأمر على العكس من ذلك فإنّ المغرب كان حاضراً على امتداد زمن

تلك الحروب بل حتى قبل الحرب الأولى 1095/488، والحرب الثانية 1147/541 والثالثة 1189/585 إلخ...

وهكذا فعلى عهد الدولة المرابطية بالمغرب قرأنا عن وجود سفارة مغربية هامة يبعث بها السلطان يوسف بن تاشفين إلى بغداد على ما يؤكد ابن خلدون في أعقاب النصر الذي حققه الجيش المرابطي في وقعة الزلاقة بالأندلس عام 1086/479... أن هذه السفارة كانت تهدف إلى ربط جناحي العالم الإسلامي مشرقه بمغربيه، أو بالحرى جعل المغرب رهن إشارة المشرق في كل ما يتهدده.

وقد قرأنا عند ابن الأثير أن بعض المثلثين (المرابطين) وردوا إلى بغداد عام 1106/499 وخطبوا في الناس يستنهضون الهمم ويُلهبون الحماس ويدعون إلى الجهاد.

وقد عرف الناس جميعاً عن أحد كبار رجال العلم أبي الحكم ابن بَرَّجَان الذي كان - وهو يقوم عام 1126/520 بتفسير قوله تعالى : ﴿لَمْ غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ كان مهموماً مكظوماً باحتلال بيت المقدس حيث وجدناه يقوم على «طريق أرباب الأحوال» كما يروي النبهاني، يستخرج بالحساب أن بيت المقدس سيحرَّر في رجب عام 583 هـ، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على انشغال الفكر المغربي بتلك الديار.

وعلى عهد الموحدين الذي ابتدأ منذ أواسط القرن السادس الهجري القرن الثاني عشر الميلادي ينبغي أن نضيف شهادة أخرى لابن الأثير عن الشيخ الفندلاوي المغربي الذي كان مثلاً أعلى للجهاد رغم تقدُّم سنِّه، والذي لم يرض بغير الاستشهاد بديلاً دفاعاً عن الشام عام 1148/543.

وبالرغم من سحب المغرب لاعترافه بسيادة بغداد، فإننا نلاحظ أن العلاقات تتواصل وخاصة فيما يتصل بما كان يتهدد الطرفين من مؤامرات كانت تستهدف تصفية الوجود الإسلامي إن في الشرق أو في الغرب.

وهكذا قرأنا عن وجود سفارة واردة عن الفاطميين، وبالذات عن ابن رزِّك على الخليفة الموحي عبد المؤمن بن علي (1162/558)⁽⁷⁾.

وهذه السفارة هي التي وردت الإشارة إليها عند المقدسي في كتاب الروضتين والتي ذكر أنها كانت تبتدئ بتحلية الأمير الموحي وولي عهد عبد المؤمن هكذا : «الأمير الأصيل النجار الجسم الفخار»⁽⁸⁾ وذلك عندما احتل ملوك الفرنج سواحل الشام.

وقد ذكر المقدسي أيضاً أن الأمير الموحيدي بعث بالأجوبة إلى ابن رُزَيْك وهو وزير مصر.

وأما شهادة ناطقة لابن جبير الذي قام برحلته إلى تلك الجهات على ذلك العهد (578-581 = 1182-1185)، وهي تعترف بالوجود المكثف للمغاربة على الساحة باعتراف المسلمين والفرنج معاً⁽⁹⁾.

وبعد شهادة ابن جبير نقف على معلومة أخرى تتحدث عن الرسائل المتبادلة بين المغرب والمشرق ويتعلق الأمر بإشارة ردّدها الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي سمع - وهو بالشام - أن الخليفة الموحيدي يوسف بن عبد المؤمن كتب إلى نور الدين ملك دمشق يقترح عليه بناء مارستان للمرضى من الغرباء⁽¹⁰⁾.

وإلى جانب الإشارة إلى الخطاب الموجه إلى الوزير الصالح ابن رُزَيْك الذي لم نقف - مع الأسف - إلا على سطر منه، وإلى جانب المراسلة التي أشار إليها الرحالة المغربي ابن بطوطة، إلى جانب ذلك نجد وثيقة أخرى كاملة قد يكون بعثها السلطان صلاح الدين عام 585/1189 عندما بعث بسفارته إلى بغداد برئاسة ابن شداد، كانت الرسالة موجهة منه إلى الخليفة المنصور الموحيدي، وهذه الرسالة هي التي تحمل تحلية المنصور بعبارة أمير المؤمنين وسيد العالمين وقيم الدنيا والدين. إلى آخر النص الذي أورده القلقشندي صاحب «صبح الأعشى»⁽¹¹⁾ وفيها يعرب السلطان صلاح الدين عما كان يعتز به منذ وصوله إلى الديار المصرية (567/1172) من مراسلة العاهل المغربي (أبي يعقوب يوسف) لاسيما بعد أن «ناب» عن العاهل في تطهير الديار المصرية من الضلال وتطهير بيت المقدس (583/1187) وتحرير الصخرة من الرجس (583/1187) ثم يخبره برّد الفعل الذي أعقب ذلك التطهير وذلك التحرير من تهافت الأفرنج - خوفاً على مصيرهم - على المنطقة بما يحملونه من زاد وعتاد متخذين من ثغر (صور) متجمعهم إلى عكا عبر الأسطول... حيث نزلنا إليهم ولاذوا بالخنادق وراوحوها بينها وبين المجانق... «ولو أن دربة عسكرنا في البحر كدربتها في البر لعجل الله فيهم بالانتصاف... وقد اشتهر وصولهم على جهة القسطنطينية على عزم الائتام إلى الشام في منسلخ الشتاء ومستهل الصيف... ولو ترّ لمكاثرة البحر إلا بحراً من أساطيله المنصورة فإن عددها واف... ويمكنه أن يكف شطراً لأسطول طاغية صقلية ليقص جناح قلوعه أن تطير. وما رأينا أهلاً لهذه العزفة إلا حضرة سيدنا أدام الله صدق محبة الخير فيه... ويختتم خطاب صلاح الدين بالإشارة إلى حامل هذه الرسالة ولكن من غير أن يذكر اسمه...

ونريد ونحن نتحدث عن هذه الرسالة، أن نتساءل : هل هي التي كان للقاضي الفاضل رأي آخر يعاكس الرأي الذي يقضي بإرسالها، لماذا ؟ لأنها تشتمل في أبرز ما تشتمل عليه من الألقاب، لقب (أمير المؤمنين) وهو اللقب الذي كان القاضي الفاضل يعتبره من خصوصيات الخليفة العباسي مثلاً...

لقد أورد المقدسي في كتاب الروضتين⁽¹²⁾ نص مذكرة رفعها القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين تناولت عدة مواضيع وهو يقول عنها على الخصوص :

«... والرسالة المغربية ليس المملوك مشيراً بتركها ولا كارهاً لسفر رسولها... وعند وصول الأمير نجم الدين من الخيم المنصور فافوضه المملوك في أنه لا يمكن إلاّ التعريض لا التصريح بما وقع أنه لا تنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين، وإن الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ما قالوه نقلاً ولا أحاطوا به قياماً ولا عرفوا مكاتبه المصريين قديماً... المذكرة تختتم بهذه العبارة : فما للألسنة والأعين شغل إلاّ السلاطين وأفعالهم وأقوالهم، ولا للخلق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم...»

فهل عطّلت هذه الرسالة ولم تأخذ طريقها إلى المغرب ؟ أم إنّ تلك الرسالة ذهبت بالفعل إلى المغرب مع حاملها قبل أن يروح السفير عبد الرحمن بن منقذ برسالته.. ؟

المهم أن الرسالة معدودة ضمن الوثائق الدبلوماسية التي تتصل بالديار المصرية والديار المغربية...

وبعد خطاب الصالح ابن رزّيك... والمراسلة التي أشار إليها ابن بطّوطة، والرسالة التي اعترض القاضي الفاضل على التحلية الواردة في ديوانها... بعد ذلك نذكر رسالة الاعتماد التي حملها الأمير السفير عبد الرحمن ابن منقذ والتي تخص كذلك موضوع طلب النجدة...

وقبل أن نأتي على عناصر رسالة الاعتماد هذه، نرى من اللازم - توضيحاً للمقام - أن نشير إلى ما سماه القلقشندي «بالتذكرة» أي التعليمات المكتوبة التي اعتادت الدولة أن تزود بها المبعوث حتى يسهر على تنفيذ مضامينها واحداً واحداً، وهي «أي التذكرة» تحتوي فعلاً على معلومات هامة وتوجيهات دقيقة معينة...

وتلخص تلك التعليمات التي صدرت للسفير ابن منقذ في أن عليه أولاً أن يتطلع أخبار البلاد وأخبار أهلها بما في ذلك العادات والمعاملات، وأن له أن يطلع على رسالة الاعتماد قبل تسليمها مختومةً للمنصور وذلك لمزيد العلم، وعليه أن يقدم للعاهل

المغربي عرضاً مفصلاً عما قام به صلاح الدين في مضر من تدابير لإقامة المذهب السنّي مكان الشيعي... ويتحدث عن حركاته نحو الشام وغزواته ضد الأفرنج وفتح بيت المقدس... ويطلب إلى السفير أن يسعى للحصول على نجدة الأسطول المغربي متى لم يكن مشغولاً بمهمة أو مباشرة عدوّاً... وإلاً فهناك مجالات أخرى لبذل العون تتجلى في النجدة البرية والمساعدات المالية... وتزود التعليمات كذلك السفير بالجواب الذي قد يحتاج إليه إذا ما سئل عن الموقف الرسمي لصلاح الدين من حركة التّشغيّب والإفساد التي يقوم بها في المغرب الشرقي بعض من كانوا ينتسبون إلى صلاح الدين !

وقد كان صلاح الدين هذا عهد إلى بعض قواده وعلى رأسهم أبو زيان وقراقوش أن يناوشوا الموحدين في المغرب الشرقي ! وهكذا ظهرت حركات تمرد وانفصال كانت تُعدّى من لدن أولئك القواد ! ! فاحتياطاً لما قد يتساءل عنه المنصور الموحدي من «تناقض» المواقف : موقف التّشغيّب على المغرب من جهة وموقف طلب نجدة من جهة أخرى، احتياطاً لذلك، نجد السلطان صلاح الدين ينصح سفيره بأن يكون جوابه عن أولئك المشاغبين بأنهم «ليسوا في وفود الممالك والأمراء ولا من المعدودين في الطواشية والأولياء...» إلى آخر التعليمات التي كانت واضحة في باب التملص مما كانت تشهده الساحة المغربية...

ونقول «التملص» لأنّ الذين يتبعون تطور العلاقات السياسية بين المشرق والمغرب على عهد السلطان صلاح الدين يعرفون جيّداً عن الرسائل والتقارير التي كان يرفعها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد : المستضيء بنور الله يشرح فيها أحواله وما قام به من أعمال وهي من إنشاء القاضي الفاضل محرر «التذكرة» السالفة الذكر... «... ولنا بالمغرب أثر أغرب، قد ملكنا - مما تجاور منه بلادنا - بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيّرنا إليها عسكرياً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر، من مشاهيرها قفصه، توزر، كل هذه تقام فيه الخطبة لمولانا المستضيء بالله سلام الله عليه...» ومن «تذكرة» أرسلها كذلك إلى الخليفة المذكور بواسطة سفيره الأمير شمس الدين الخطيب، وهي أيضاً من إنشاء القاضي الفاضل :

«... وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر، وملكهم قد عمر، وجيوشهم لا تطاق، وأوامرهم لا تشاق، ونحن - والحمد لله - قد ملكنا - مما يجاورنا منه - بلاداً تزيد مساحتها على شهر... وتنفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها، وفي هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهدته وفود الأمصار، مقداره سبعون ركباً، كلّهم

يطلب لسلطان بلده تقليداً ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا - بحمد الله - تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع والألوية والمناشير لما فيها من الأوامر والأقضية».

هكذا وردت الأحداث المغربية في الرسائل المرفوعة إلى بغداد عن المدن المحتاجة شرق المغرب، فماذا عن أصداء تلك الأحداث في الوثائق المغربية الرسمية ؟ هنا سنقرأ في إحدى الرسائل الديوانية للدولة الموحدية وهي من إنشاء الكاتب أبي الفضل بن طاهر بن محشرة وتحمل تاريخ ثاني رمضان 6/583 1187⁽¹³⁾... وكانت تتحدث عن مشاركة أبي زيان وقراقوش في عمليات التشغيل قبل أن يضطرا إلى الاستسلام...

«... وفي يوم الحلول به (بالمقل) وصل خطاب قراقوش وأرساله راغباً في التوحيد، خاضعاً، ماداً يد الاستكانة إلى هذا الأمر السعيد ضارعاً مُعلِّماً أنه إن قبلت توبته، وأجيبته رغبته جاء إلى الموحدين - أعزهم الله - مطيعاً سامعاً، ووصلت في غده أرسال أبي زيان ومخاطبته معرفاً بركونه إلى هضبة هذا الأمر العظيم وركنه، واعتلاقه بذمة أمانه وأمنه، وإيوائه إلى كهفه الأرق وحصنه، وهو زعيم من زعماء الأغزاز يضاهي قراقوش في قدره ويقاسمه في أمره...»

وتعود التعليمات التي في «التذكرة» لعبد الرحمن بن منقذ لتطلب إلى السفير أن يخبر العاهل المغربي بما قام به صلاح الدين في مصر من إجهاز على بعض الفئات إنما كان تأديباً لهم لأنهم كانوا يراسلون العدو !

وتختم التذكرة بالحديث عن الهدية المسيّرة التي يرد تفصيلها في كتاب الأمير مجد الدين سيف الدولة مقروناً بها، كما تختم بالحديث على مبادرة الوقت قبل أن يغلق البحر مع قرب الشتاء (شتبر 1190) وتدعو التذكرة أخيراً بالتوفيق والحفظ والرعاية، وهي مؤرخة يوم 28 شعبان 586 (30 شتبر 1190).

أما عن رسالة الاعتماد فقد كانت تتضمن - بعد التحية الفخمة - تبشير الملك صلاح الدين للخليفة المنصور الموحيدي بفتح بيت المقدس⁽¹⁴⁾ وإخباره بما نال العاهل المغربي من أذعية المسلمين في تلك المشاهد الأمر الذي يدل على الحضور المغربي في تلك الحروب، وأنه لم يبق من الثغور غير طرابلس وصور ومدينة أنطاكية، ويعتذر صلاح الدين عن التأخير في المكاتب بما انشغل به من غزوات متخلّصاً من هذا الحديث عما أقدم عليه ملوك الفرنج ومنهم ملك الألمان من استجابة لاستصراخ الكفار المحصورين

بالشام، حيث جمعوا العدة والعدد للتمكن من بلاد الإسلام ونزلوا على عكا يمدّهم البحر بأمداده فيملأها عليهم جوارّي كالأعلام...

واستمر مقام العدو محاصراً للثغر، محصوراً منا أشدّ الحصر لا يستطيع قتال الثغر لأننا من خلفه ولا يستطيع الخروج إلينا خوفاً من حتفه، ولا نستطيع نحن الدخول إليه لأنه قد سور وخندق... وعندما تتحدث الرسالة عن مصرع ملك الألمان وتولي ابنه مكانه أثناء الحملة، تذكر - في حسرة - أنه لو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أخذاً سريعاً...

وهنا يتوجه إلى الخليفة طالباً أن يمدّ غرب الإسلام المسلمين بأكثر مما أمدّ به غرب الكفار الكافرين... وهنا نقف أيضاً مع استعمال كلمة الاستبطاء على هذا النحو :

«... ولما استبطأت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحية، فقد تحفل السحاب ولا تمطر إلا أن تحرّكها أيدي الرياح... وهنا يقدم صلاح الدين سفيره أبا الحزم عبد الرحمان بن منقذ سفير الملوك والسلاطين... وتورخ الرسالة في شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة...»

وكّل المصادر التاريخية تتحدث عن أن ابن منقذ سفير الشام والديار المصرية أُلقي على متن (شيني) من الاسكندرية في اتجاه المغرب يوم 13 رمضان 586 (14 أكتوبر 1190) ووصل إلى طرابلس أول البلاد في 25 من شوال، وأقام بها إلى 8 ذي القعدة ثم توجه إلى البلاد وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى بن أبي بكر بن محمد بن الشيخ حفص⁽¹⁵⁾ (كبير الوزراء، ودفع كتاب السلطان إليه يوم الخميس سابع ذي الحجة، وكان الدخول على يعقوب والسلام عليه في يوم 20 ذي الحجة (18 يناير 1191)⁽¹⁶⁾... وهو اليوم الذي حملت فيه هدية السلطان صلاح الدين إلى خزنة الخليفة المنصور، أي بعد عودة المنصور من البرتغال واسترجاع شلب ويابورة، وقد اجتمعا على انفراد على حد تعبير ابن عذاري⁽¹⁷⁾ الذي يقول بالحرف : وفي هذه السنة 586 وصل ابن منقذ رسولاً عن صاحب الشام والديار المصرية يوسف بن أيوب الملقب بصلاح الدين وكان وصوله أولاً إلى إفريقية...

وفي رجب الفرد⁽¹⁸⁾ وصلت إلى المنصور أمير المؤمنين مخاطبات السيد أبي زيد من إفريقية والسيد أبي الحسن من بجاية بوصول المذكور إلى تلك البلاد، وما قابله به من المبرة وتوطئة المهاد والتعريف منهم بكتامه (أي ابن منقذ) لسبب وصوله، ولما جاء فيه من أشغاله، فروجع السادات بالشكر على ما قابله به من الإكرام، وأن لا

يبحث عنه بشيء من الاستفهام، ثم قدمت الخطابات إلى من بالمغرب من الولاة والعمال، بالتوسعة له في نزله والاحتفال به، وأن يستقر بمدينة فاس، فأقام بها إلى أن انقضت حركة المنصور، فاستدعى الرسول المذكور، فوصل إليه وقعد بين يديه وخلا به على اختصاص وانفراد، وأمر قبل دخوله بقصده إلى المراد، فلقى الجواب من المنصور مجملًا، وأحيل على ما يوضحه له الوزراء (أبو يحيى بن أبي حفص) مفسرًا ومكملًا، ولما دنا إياها، وحصل على ما تمكن جوابه، أفيض عليه من النوال الغمر والإحسان، وضروب من التعم السابغة والامتنان، وقوبلت هداياه من العوض في نفاسة الأشخاص والأثمان، وانصرف إلى بلاده وقد رأى ووعى في طريقه وفي مدة إقامته ما علم به أن بالمغرب مُلك الإسلام ومقر الإيمان...

وقد استمرت إقامة السفير ابن منقذ إلى أن غادر يوم 10 محرم من عام 588 (27 يناير 1192)، ومعنى هذا أنه أقام بالمغرب سنة كاملة وعشرين يوماً ظل فيها على صلة تامة بتتبع الأخبار وبتحركات صلاح الدين على مشارف عكا، وقد كان يرافقه في هذه المدة شاعر الخلافة الموحدية أبو العباس الكراوي⁽¹⁹⁾.

وعندما تحدث صاحب كتاب الاستبصار⁽²⁰⁾ عن فتح السلطان صلاح الدين لبيت المقدس يوم الجمعة 28 رجب 583، استطرد بهذه العبارات : «وقد بعث أرساله بما وجد فيه وفي تلك البلاد في الذخائر وهم الآن في مدينة فاس - حرسها الله - مُستمعين للأوامر المطاعة ونحن في رمضان الفرد من سنة 587 (شتنبر - أكتوبر 1191)، ويضيف هذا المصدر أن اجتماع هذا الرسول وهو عبد الرحمن بن محمد بن منقذ الأزدي سادس محرم سنة 588 (23 يناير 1192)، بالخليفة الإمام أبي يوسف رضي الله عنه، وخرج من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يُعلم به⁽²¹⁾...

ويذكر أبو شامة في (عيون الروضتين) أن ابن منقذ وصل إلى الاسكندرية في الثامن والعشرين من شهر جمادى الأخيرة سنة ثمان وثمانين من غير أن يحصل على المطلوب⁽²²⁾...

فماذا عن الأمير مُرهف المنقذي السفير الجديد لصلاح الدين ؟ وماذا عن رسالته.. ؟ ثم ماذا عن «التذكرة» التي نفترض أنها حُملت إلى الأمير عبد الرحمن بن منقذ وهو مقيمٌ بالمغرب ؟

كُل الذين ترجموا لمرهف بن أسامة بن منقذ⁽²³⁾ لم يتعرضوا، على ما في علمي، إلى قضية سفارته إلى المغرب ولو أنهم تناولوا ترجمته باقتضاب كُل حسب اختياراته وميوله...

ومن حسن الحظ أن نجد معاصراً له عرفه عن كتب يقدم لنا معلومات ضافية عنه، كان ذلك هو ياقوت الحموي في (معجم الأدباء) الذي خصص له حيزاً مناسباً فنعته بالأمر عضد الدين أبي الفوارس. ويظهر من خلال ما قاله، أنه، أي ياقوت، كان يتردد على مرهف في مصر، وقد فارقه أواسط عام 612 هـ. قال : إنه شيخ ظريف واسع الخلق شائع الكرم جماعة للكتب، حضرت داره واشترى مني كتباً وحدثني أن عنده من الكتب ما لم يعلم مقداره، سألته عن مولده قال إنه ولد سنة 520... ومع أنه كان متقدم السن فإنه - كما يقول ياقوت - ظل صحيح العقل والذهن والبصر يقرأ الخطّ الدقيق كقراءة الشبان.. !

أقطعهُ السُلطان صلاح الدين ضياعاً بمصر وأجراه الملك العادل أخو صلاح الدين على ذلك وكان الملك الكامل يعرف له حقّه إلى أن أدركه أجله يوم ثاني صفر سنة 613 هـ، وقد ذكر ياقوت بعضاً من شعره كان فيه ما أورده العماد في (الخريدة) يخاطب أحد الملوك من الذين كانوا يعتقدون أنهم باستخفافهم بالناس والتضييق عليهم يحملونهم على الطاعة والانقياد !

وإن كنت ترجو طاعتي بإهانتني وقسري فإن الرأي عنك لعازب !

وقد كتب ذات يوم إلى والده أسامة كتاباً على يد مستمنح، فلم تمكّن الظروف لأسامة من تحقيق غرض ولده فأجاب ولده بهذا :

أبا الفوارس ما لاقيت من زمني أشد من قبضه كفي عن الجود !
فصرت إن هزني جانّ تعود أن يجني ندائي وآني يابس العود !⁽²⁴⁾

وعن الرسالة التي «فلتت» لسائر المؤرخين للحروب الصليبية⁽²⁵⁾ والتي عثرنا عليها في مخطوطة أمين الدولة أبي الغنائم مسلم بن محمود الشيزري المتوفى بعد سنة 622 المخطوطة تحمل عنوان (جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام)⁽²⁶⁾ وقد أورد هذه الرسالة التاريخية مباشرة بعد إيراد قصيدة للوالد أسامة ابن منقذ ربّما ذكرته في مهمة الولد فأتي بهذه الرسالة التي تحدث عنها اليوم وهي تتألف من مائة وتسعة أسطر.

وإن مما يستدرك به على المؤلف أو على النّاسخ، - لا أدري ؟ - أن خطاب صلاح الدين لم يكن موجّهاً للخليفة عبد المؤمن كما تقول المخطوطة التي بين أيدينا للشيزري ولكنه كان موجّهاً إلى حفيده يعقوب المنصور، وبعضنا في هذه الملاحظة نفس الأحداث التاريخية التي تتحدث عنها الرسالة والتي جرت بعد غياب الخليفة عبد المؤمن.. ولم يكن غريباً علينا أن نعرف أن الخطاب كان أيضاً من إنشاء القاضي الفاضل الذي كان حاضراً دائماً في القضايا الكبرى التي تواجه الدولة.

وقد عكس ذلك الفراغ الذي لاحظناه في المصادر السابقة حول الرسالة التي حملها الأمير مرهف إلى المغرب، أقول عكس آثاره على جميع المصادر اللاحقة التي اهتمت باستيعاب الوثائق المتعلقة بالحروب الصليبية⁽²⁷⁾...

ولا يتأتى لنا أن نقف على «جديد» الرسالة المذكورة إلا إذا حاولنا أن نقوم باستعراض مضامينها ومحتوياتها... وبعد هذا نأتي بعناصر «الرسالة التذكرة» التي نفترض أن مرهفاً حملها للأمير عبد الرحمن بن منقذ الذي ظلّ يقيم في المغرب منتظراً تهيئة النجدة والعدة على ما أسلفنا...

فمن الرسالة التي كتبت بخطوطٍ تعسر قراءة بعضها ضيعت علينا الوصول إلى بعض المعلومات، نذكر باختصار أنها بعد الحمدة والتصلة تستهل - كذلك - بالآية الكريمة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾

«... لقد صدر هذا الكتاب حاملاً لِلتَّحِيَّةِ إِلَى الْمَقَامِ الْعَظِيمِ ثُمَّ يَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ التَّعَمُّعِ فِي هَذِهِ الْمَصَافِحَةِ لِلدِّينِ الْكَرِيمَةِ بِالْكِتَابِ، وَإِنَّهُ مَا أَخَّرَ الرِّسَالَةَ إِلَى بَابِهِ أَنْ تَتَوَالَى إِلَّا شَوَاعِلُ الْجِهَادِ فِي الْكُفْرِ وَالْإِلْحَادِ...

ثم تتخلص الرسالة إلى الإشادة بما منح الله الخليفة المنصور من قوّة وأولاه من ثروة⁽²⁸⁾ (السطر 26).

وقد كانت أول إشارة استرعت انتباهنا ونحن نبحث عن التاريخ المحتمل للرسالة، هي الإشارة التي تتحدث عن (خمسة وعشرين سنة) قضاهها صلاح الدين⁽²⁹⁾ خارجاً من بيته لا يعرف نعيماً... ونحن نعلم أن صلاح الدين صاحب عمّه القائد المعروف شيركوه الذي عهد إليه الأمير نور الدين حاكم سوريا عام 562/1167 بالغارة على مصر حيث كانت (وقعة البابين)...

فمنذ ذلك التاريخ وفي تضاعيف ربع القرن هذا قام صلاح الدين بتطهير الديار المصرية من أوضاعها وأوزارها... ووضع ما كان معروفاً من المعارم والمحارم وتعطيل الموازن... وكانت الرسالة تشير أيضاً إلى الانقلاب الذي قام به صلاح الدين في مصر على الفاطميين والإعلان في خطبة الجمعة يوم 7 محرم 567 (10 شتنبر 1171) باسم الخليفة العباسي... واجتمعت الكلمة بعد شتاتها...

ثم تشير الرسالة إلى انتقال حكم الشام إلى مصر بعد وفاة الأمير نور الدين في شوال عام 569 (مايه 1174) وبعد التغلب على دمشق وحلب...

وبعد هذا تتعرض الرسالة للمحاولة الرهيبة التي قام بها الفرنج للاستيلاء على الحرمين الشريفين حيث أعدوا العدة وقصدوا بأسطولهم الحجاز عن طريق البحر الأحمر في موسم الحج عندما دامهم الحاجب لؤلؤ شوال 578 (يناير 1183)... لقد كان القصد إلى الإجهاز على قبلة المسلمين ونبش قبر سيد المرسلين⁽³⁰⁾.

وتتحدث الرسالة عن استمرار الحروب بين المسلمين والفرنج... والإشارة إلى الهزيمة المنكرة التي حصلت للفرنج في حِطّين 25 ربيع الثاني 583 (يوليه 1187). وفي هذه الأثناء أسر الملك كي دولوزينيان (Guy de Luzignan) وملك عليهم الصليب الأعظم وهو صليب الصليبوت الذي تردّد ذكره كثيراً في المصادر التي تحدثت عن حروب الفرنج... ومنها هذه الرسالة التي حملها مرهف المنقذي وقد حُمِلَ صليب الصليبوت منكساً إلى دمشق⁽³¹⁾...

والإشارة كذلك إلى عكّا التي رحل إليها السلطان في مستهلّ جمادى الأولى فأخذها وحرّر من كان بها من الأسرى المسلمين زهاء أربعة آلاف واستولى على ما فيها من الذخائر والأموال والبضائع وكانت كما نعرف ملاذاً للتجار وقد خرج أهل عكّا يطلبون الأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم، وصلى المسلمون بكنيستها السابقة صلاة الجمعة ثاني جمادى الأول (10 يونيو 1187) إلى آخر لائحة المدن والحصون التي سقطت: نابلس وحيفا وقيسارية وصيدا والناصرية وعسقلان⁽³²⁾.. الخ «وفتح الشام مثنى وفرادى، ثغوراً وبلاداً في شهرين كانا للمسلمين ربيعين وللكافرين حمادى..» على حدّ تعبير رسالة مرهف المنقذي.

وتصل المسيرة إلى بيت المقدس فيفتحها الله كما تقول الرسالة في يوم الجمعة 27 جب 583 (2 أكتوبر 1187) وخطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيماً... وقد أمر السلطان باستدعاء المنبر الذي كان قد أعد لهذا الغرض في حلب⁽³³⁾... وفرّج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين وكانوا سلفاً كثيراً يبلغ زهاء ثلاثة آلاف أسير كما يقول القاضي ابن شداد.

وعلى نحو ما قرأناه في الرسالة التي حملها الأمير عبد الرحمن ابن منقذ نجد أن رسالة مرهف تنصّ نصّاً على أنّه لم يبق إلا ثغران ساحليّان: طرابلس وصور، ومدينة داخلية هي أنطاكية...

وقد شعر صلاح الدين في هذه الرسالة أيضاً بالمرارة الزائدة وهو يرى استجابة فرنج الغرب، وبكثافة الاستصراخ في ساحل الشام... مبرزاً السرعة الزائدة التي تتمّ بها النجدة... فلم يكن إلاّ كلاً ولا حتى⁽³⁴⁾ أمدهم البحر بمثلته سفائن تمر بل مدائن

تسير فيها الأكبر من الكفار، والأعيان من التجار والمقاتلة المجهزة، والقناطر المقنطرة والأسلحة والخنن والأقوات والمؤون وآلات اللقاء وآلات الحصر وآلات الهدم وآلات الحفر. وفيما رأينا رسالة عبد الرحمن ابن منقذ تقول: ربّما وصلوا عكا. نجد هذه الرسالة تتجاوز هذا ليقول: «وحصروا عكا وحصرناهم وخندقوا على أنفسهم... بل إن الرسالة تخبر عن أن الكفار الذين كانوا يعتصمون بالخنناق خرجوا في مرتين متواليين يهاجمون العرب والمسلمين» وما قصر القتل في المرتين عن عشرين ألف كافر.. وهو نفس الرقم الذي سرد في «التذكرة» التي كانت تصحب الأمير عبد الرحمن.

وإذا كانت هذه «التذكرة» أشارت إشارة عابرة إلى «الأبرجة» التي حاول إحراقها أهل الثغر، فإن رسالة الأمير مرهف وقفت طويلاً عند هذا الحدث الذي - ولو أنه لم يحسم الموقف - كان بمثابة «متنفس» وجد فيه المسلمون ما يسليهم عن الحنة التي كانوا يعيشونها... لقد ضايقوا عكا بأبراج خشبية ضربت مع الأبراج الحجرية... وتقدموا بالمنجنقات... وأورى المسلمون النيران فحرق أهلها من الكفار وضاق بالعدو السبيلان: المقام والفرار وأحرق تلك الأبراج والمنجنقات...

ونرى مما يلقي الضوء على هذه السطور (73-74-75-76) من رسالة الأمير مرهف أن نأخذ فكرة عن قضية هذه العملية التي لم تكن تقل عما نسمع به اليوم من قذف الصواريخ على أهداف العدو...

وفي هذا الصدد سأرجع إلى ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ في الجزء الثاني عشر (ص: 45-47)، لألخص ما ورد فيه عن الأبراج التي زحفوا بها بتاريخ 20 ربيع الأول 587 (27 أبريل 1190).

لقد صنعت من أخشاب خاصة وبلغ علوها ستين ذراعاً في عنان السماء وقسموا كل برج إلى خمس طبقات، كل طبقة مملوءة بالمقاتلة كانت مغطاة بالجلود والخل والطين والمواد التي تمنع النار من إحراقها ونصبوها نحو عكا من ثلاث جهات...

وهنا أرسل أهل الثغر رسولاً لصلاح الدين وصل إليه سباحة⁽³⁵⁾ إذ كان الحصار محكماً على المدينة.. ودام القتال ثمانية أيام.. والمسلمون قد تيقنوا استيلاء الفرنج على البلد... وتابع أهل البلد رمى النفط الطيار على الأبراج فلم يؤثر فيها إلى أن أتى الله بإنسان من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين والحصول على عقاقير تقوي عمل النار. فقام هذا الإنسان بتركيب ما يعرفه من المواد المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل على حد تعبير ابن الأثير... وقدم ذلك الدمشقي هذا الاختراع إلى حاكم عكا الذي كان بالصدفة يحمل إسم قراقوش والذي سخر أول الأمر من هذا

الاختراع... لكنه لم يلبث أن أمر المنجنيقي بإرضاء طلب الدمشقي فَرَمَى أَوَّلًا عدة قدور ليس فيها نار حتى يتأكد من وصول القُدور إلى البرج... وحينئذ ألقى قذراً مملوءاً بالنار... فاشتعل البرج ! وألقى قذراً ثانية وثالثة فأضرمت النار في الطبقات الخمس إلى آخر القصة المُطرقة التي وصلت أخبارها إلى صلاح الدين الذي أحضر الدمشقي ليكافئه، لكن هذا اعتذر عن تسلم المكافأة مؤكداً أنه إنما قام بذلك ابتغاء وجه الله !

لقد قال ابن الأثير في أعقاب سرد هذه الحادثة : إن صلاح الدين سَيّر الكتب إلى البلاد بهذه البشائر... ونعتقد أن الرسالة التي حملها مرهف إلى المنصور الموحيدي كانت من تلك الرسائل...

وقد لاحظنا أن بعض العناصر التي اشتملت عليها رسالة مرهف لم تكن على ترتيب تاريخي مضبوط، ومن هنا وجدنا الرِّسالة - بعد ذكر حادثة الأبراج التي تمت على ما قاله ابن الأثير عام (1190/587)، ترجع إلى ذكر وصول ملك الألمان... وكيف غرق وقام ابنه من بعده والأخبار عن الجوع والوباء عام (1190/586) على ما نقرأه كذلك في الكامل لابن الأثير (الجزء الثاني عشر ص : 48-50).

وكأنَّ الرسالة من خلال حديثها عن ملك الألمان كانت تُريد العودة مرةً أخرى للتذكير بأنَّ ما حصل من نكسات للعرب والمسلمين إنما يرجع لعدم توفرهم على الأسطول في الوقت المناسب، في الوقت الذي كانت فيه النجدة الفرنجية الغربية تبلغ قمتها كثرة وقوة عدة... (السطر 92-93 من الرسالة).

ونقرأ من بين سطور الرسالة المذكورة الأمل الذي ما يزال يخالج السلطان صلاح الدين - بالرغم من سرعة توالي الأحداث - فهو يأمل في وصول ما قد يمكن من «فتح بلاد العدو» ونجد هنا استعماله لتعبير : «وطال الانتظار» بعد أن كنّا قرأنا في رسالة الأمير عبد الرحمن الاقتصار على تعبير : «ولما استبطأت»

وتختتم الرسالة بتقديم الأمير مرهف الذي يعتبر «من أهل النهضة والديانة المحضة، والرشد فيما يعتمد عليه والسداد فيما يقصده والصدق فيما يُورده...»

وبعد أن استعرضنا رسالة مرهف نقوم باستعراض ما نعتقد أنه «التذكيرة» التي حملها لإقريبه الأمير عبد الرحمن...

لقد وردت هذه التذكيرة في كتاب الرُّوضتين (الجزء الثاني صفحة 188) وهي الخطاب الذي يحسم في قضية محاصرة عكا ويبيّن بالواضح أن الأمر انتهى والمفاوضات

مع العدو في طريق تدشينها إن لم تكن قد بدأت بالفعل وإن على السفير عبد الرحمن ابن منقذ أن يحزم حقائبه للعودة...

وهكذا فإذا كانت المعلومات السابقة تحدثت عن مصرع عشرين ألفاً من الكفار... فإن هذه الرسالة تتحدث عن تجاوز العدد خمسين ألفاً... «قولاً لا يطرقه التسمّع بل يحرزہ التصفّح».

وإن الإشارة الصريحة الفصيحة هي التي وردت في الرسالة والتي تقول : «وفي هذه السنة - (والقصد إلى 23 ربيع الأول 587 (20 أبريل 1191) بالنسبة للملك فرنسا (فيليب أغسطس⁽³⁶⁾) وإلى 13 جمادى الأولى 587 (8 يونيو 1191) بالنسبة للملك إنجلترا (رتشارد قلب الأسد)⁽³⁷⁾ - انبرى ملكا فرنسيس وانكلتيرة وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والآلات ووصلت كلّ سفينة تحمل كلّ مدينة وأحدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسلاح إليه والداخل بالميرة عليه⁽³⁸⁾... ثم تقول الرسالة بصراحة ليس بعدها صراحة : وأخذ البلد (يعني عكا) على سلم كالحرب، ودخله العدو ولو لم يدخله من الباب دخل من النقب !

وتعود الرسالة لتطلب إلى الأمير عبد الرحمن ابن منقذ أن يبلغ ما بلغه من خطب الإسلام وخطوبه ويقوم يوم الجمعة مقام خطيبه...

ويأمر صلاح الدين سفيره بعد هذا أن يعجل بالعودة... وإذا ما علمنا إلى جانب كلّ هذا أن بعض الأكابر داخل عكا من أمثال الزعيم سنقر أدركوا تصدع الموقف وأن الأحداث سائرة إلى كارثة... فركبوا على متن بركوسة إلى الساحل الآخر⁽³⁹⁾... ولم تلبث المدينة أن سقطت يوم الجمعة 17 جمادى الثانية 587 (12 يولييه 1191).

ولعلّ مما يزيد في إعطاء الصورة كاملة عن تحالف سائر الملل والتحل على إسقاط عكا، أن نقتبس هذه الكلمات من الكتاب الذي رفعه صلاح الدين إلى الخليفة العاصر العباسي في بغداد.

«... واجتمعت في هذه الجموع الجيوش الغربية والألسنة العجمية ممن لا يُحصر مغدوده، ولا يُتصور في الدنيا وجوده، فما أحقهم بقول أبي الطيب المتنبي :

تَجْمَعُ فِيهِ كُلُّ لِسَانٍ وَأُمَّةٍ فَمَا تَفْهَمُ الْخَبَرَ إِلَّا التَّرَاجِمُ !

حتى إذا أسر الأسير... احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر، ويقول ثانٍ ما يقول أوّل، وثالث ما يقول ثان.. والأصحاب كلّوا أو ملّوا وصبروا إلى أن ضجروا أو تبلّدوا.. !

ومن هنا نقول : إذا كان هناك ما يمكن أن يبقى في خاطر المنصور الموحيدي فهو ليس لقب «أمير المؤمنين» ولكن الذي يبقى في خاطره وضربه من خلف، وفي المغرب الشرقي - وهو يواجه العدو المشترك في الأندلس !

يبد أن الواقع - لحسن الحظ - أن رؤساء الدول كانوا أسمى وأرفع من أن يفرطوا في الثوابت، وهكذا فقد كان صلاح الدين في المستوى عندما توجه لأخيه اليوم، وكان المنصور في المستوى عندما ضرب صفحاً عن الأمس !

فماذا إذن عن أسباب عدم الحصول على المطلوب ؟

إن مراجعة سريعة ليومية الجيش الإسلامي على أبواب عكا وليومية السفارة الصلاحية بالمغرب تؤكد بالبرهان أنه لم يكن من الممكن عملياً أن يستعد الأسطول بمعداته وآلاته ورجاله وزاده ويأخذ طريقه من أقصى البحر المتوسط غرباً إلى أقصاه شرقاً ماراً على سواحل الأفرنج الذين كانوا كتلة واحدة مع الفرنج المحاصرين لعكا... والذين كانت تربط المغرب مع بعضهم اتفاقية عام 1186/582 تقول : «وإذا لقيتهم في البحر أساطيل الموحيدين فلا سبيل لها إلى التعرض لهم ولا إلى إذايتهم في نفوسهم وأصولهم ولا في شيء من شؤونهم وأحوالهم»⁽⁴⁰⁾...

أقول لم يكن من الممكن أن يتم كل ذلك في ظرف ستة شهور، وقد علمنا أن الفرنج أعدوا العدة لحركتهم طوال سنوات... سيما والمنصور الموحيدي يعيش ظروفاً صعبة مع قشتالة والبرتغال وهم على مرمى حجرة منه !

لقد تم استقبال الأمير عبد الرحمن بن منقذ من لدن الخليفة يعقوب المنصور بفاس، على ما عرفنا، يوم 20 ذي الحجة 586 (18 يناير 1191)، ولقد تم سقوط عكا يوم 17 جمادى الثانية 587 (12 يولييه 1191) وتبعت ذلك مباشرة المفاوضات بين السلطان صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا أواخر رمضان 587 منتصف أكتوبر 1191.

ومعنى هذا أن الفترة ما بين استقبال السفير من أجل طلب النجدة وبين سقوط عكا لم تتجاوز - كما قلنا - ستة أشهر، والستة أشهر لم تكن كافية بالقطع لإعداد نجدة في مستوى ما عرفناه عن تهافت الفرنج من كل حذب وصوب على عكا لدرجة أن تنوع عدد اللغات الرائجة كان يخلق مشاكل للذين يحاولون أن يتفاهموا مع تلك الحشود الواردة من مختلف الآفاق...

نعتقد أن سفارة صلاح الدين لم تفشل في مهمتها الدبلوماسية والسياسية أبداً

لأن القضية بما تحمله من ثقل، وما لها من بعد، ولأن مكان السلطان صلاح الدين بما كان ينعم به من مكان مرموق لدى الجميع، ولأن مركز المنصور الموحي وما كان يتوفر عليه من خصال ومزايا ولأن مكانة السفير الأمير ابن منقذ بما عليه من مجد أثيل... كل ذلك لا يسمح لنا أن نحكم على المهمة بالفشل. ولكن الذي لا يمكن أن يغيب عن الذاكرة هو أن الأحداث المتلاحقة التي واكبت مقام السفارة بالمغرب كانت من السرعة بحيث لم يكن في استطاعتها أن تحقق أكثر مما حققت..

وهكذا فإن الذين أطلقوا تلك «الإشاعة» على المنصور كانوا في نظرنا لا يتوفرون على سائر العناصر لإصدار حكمهم المنتشر...

لقد ورد في التعليمات التي زود بها السلطان صلاح الدين سفيره ابن منقذ : «... وإن كانت دون الأسطول موانع إما من شغل هناك بمهمة أو بمباشرة عدو... فالمعونة ما طريقها واحدة...»

وقد قرأنا عن أن المنصور استقبل السفير ابن منقذ وهو على شعث سفر من غزوات قاسية في البرتغال يتوقع بعدها ردود فعل أكثر قساوة ! بل وهو يخطط للزحف مرة أخرى إلى الأندلس لينتقم من الذين أجهزوا على والده بالأمس⁽⁴⁰⁾...

فماذا بعد هذا عن رسالة مرهف ؟

الذي اعتقده أولاً أن الرسالة راحت إلى المنصور بعد أن التحق الأمير عبد الرحمن ابن منقذ بالمغرب، ودليلنا على ذلك التفاصيل الواردة فيها عن بعض الأحداث التي شهدتها الساحة وخاصة قضية إحراق الأبراج. وبينما كانت وثائق الأمير عبد الرحمن تتحدث بصيغة (ربما) نزلوا بعكا، كانت رسالة مرهف تتحدث عن عمليات ما بعد النزول...

وماذا عن الفرق بين الكلمة «الانتظار» التي نجدها في رسالة الأمير عبد الرحمن وبين كلمة «طال الانتظار» التي نجدها في رسالة مرهف ؟

كل هذا يضاف إلى عنصر هام جداً وهو الخبر عن تسلّم الأمير عبد الرحمن لرسالة تحمل أخبار سقوط عكا مما أجهلناه، وإن سكوت سائر المصادر عن الحاملين للرسالة، يُمكن أن يجيب عنه الخبر بوجود رسالة للأمير مرهف المنقذي الذي تربطه بعبد الرحمن آصرة القرابة... ولا ينبغي أن يشوش علينا تكرار الأخبار التي وردت في الرسالة الأولى مع الأخبار التي وردت في الثانية، فقد كانت العادة أن تقرّر الأخبار وتكرّر، سيما إذا كانت تتصل بتحقيق نصر أو إنجاز مكرمة من المكارم...

ونريد أن نوّكد هنا مرة أخرى أن مما يمكن أن يفسّر سكوت سائر المصادر عن مهمة الأمير مرهف بالمغرب أنها، أي المهمة، تمت في ظروف قلقية ازدهمت فيها الأحداث وتلاحقت بسرعة فلم يكن هناك مجال للحديث بعد سقوط المدينة الذي لم يلبث أن تبعه تحاذل الأمراء وتنافسهم سيما بعد وفاة السلطان صلاح الدين⁽⁴²⁾...

وماذا عن الرواية التي يذكرها ابن خلدون والتي تقول : إن المنصور جهز لصلاح الدين مائة وثمانين قطعة من الأسطول لمنع النصارى من الاستمرار في خططهم لاحتلال بقية سواحل الشام⁽⁴³⁾...

ومن المفارقات الغريبة أن نجد بعض المؤرخين يتفهم الموقف ويستبعد تلك «الإشاعة» قائلاً بالحرف : إن أبا يوسف يعقوب تعهد بإرسال أسطول لعرقلة نشاط الإيطاليين في مياه البحر المتوسط⁽⁴⁴⁾... فيما نجد بعضاً آخر ينساق مع «الإشاعة» ويذكر ترة من أسخف الترهات وأولاها بالاستخفاف والازدراء، تلك أن المنصور الموحدي أصابه «الغرور»⁽⁴⁵⁾ بانتصاره في معركة الأرك (ALARCOS) فلم يتنازل للردّ على رسالة السلطان صلاح الدين ! مع أننا نعرف جميعاً أن معركة الأرك إنما كانت عام 1195/591 أي بعد ست سنوات من رسالة صلاح الدين ؟

الهوامش

- (1) د. عبد الهادي التازي : بلاد الشام في الوثائق الدبلوماسية المغربية، يراجع السفر الذي أصدرته الجامعة الأردنية والذي يتضمن أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام في ربيع الأول والثاني 1394 أبريل 1974 من الصفحة 431 إلى 488 الدار المتحدة للنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1974.
- (2) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المجلد السادس، عهد الموحدين ص : 302 سنة 1407/1987 رقم الإيداع القانوني 1986/25 - مطابع فضالة - المحمدية.
- (3) لا ننسى أن محي الدين ابن عربي عاصر في المغرب ثلاثة من خلفاء الموحدين. ومن المعروف أن معلوماته اكتملت ببلاد المغرب... ولولا اعتبارات خاصة لكان كتابه يحمل إسم (الفتوحات المغربية) يضاف إلى هذا، الصدى الذي تركته الزيارة السياحية العلمية الطويلة التي قام بها ابن حمويه للديار المغربية...
- (4) يلاحظ أن وصفنا لهذه الحروب بالصليبية إنما هو مجازة للاستعمال الذي شاع في المصادر الغربية، أما المصادر العربية الأصيلة فإنما تعرفها بحروب الفرنج... وقد استنتج بعض الباحثين من حرص الفرنج على استرجاع ميناء عكا الذي يعتبر آنذاك قاعدة لِسائر الموانئ دون حرصهم على بيت المقدس اعتبروا ذلك مؤشراً على أن الحرب اقتصادية وليست دينية.
- (5) Le Comte De Mas Latrie : Traité de Paix et de Commerce concernant les Relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique Septentrionale du Moyen Âge. Paris 1866 p.36. Relations et Commerce de l'Afrique Septentrionale au Maghreb avec les Nations Chrétiennes, Paris 1886 p.67-68.
«Les Maghrébins ne prirent aucune part aux guerres des croisades...»
- (6) عُرِف ابن خلكان وعدد كبير من المؤلفين بأبي الحكم عبد السلام ابن بُرجان أو أبي الرجال ابن المؤقت : السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية طبعة حجرة 1336 هـ ج I ص : 106.
- (7) أصل ابن رُزَيْك من العراق وقدم على مصر، ولم يلبث أن سنحت له الفرصة فتولى الوزارة بتاريخ 19 ربيع الأول 549 (3 يونيو 1154) ولقب بالصلاح، ولما توفي الخليفة الفاطمي الفائز عام 555/1160 وتولى عوضه الخليفة العاضد تزوج بنت الوزير ابن رُزَيْك فمكنت كلمة الوزير أكثر إلى أن تم اغتياله بتاريخ 19 رمضان 556 (11 سبتمبر 1161) وأغتتم هذه الفرصة لأصحح ما ورد في كتابي التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 6 ص : 292 من أن ابن رُزَيْك كان هو على رأس السفارة والواقع أنها كانت بأمره...
- (8) ورد في كتاب الروضتين للمقدسي : «وآخر ما كتب في أيام الصالح بن رُزَيْك فخطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن إلخ.. ج 2 ص : 175/174».
- (9) كان مما يعير عن الوجود المغربي حيّ بكامله يحمل إسم حيّ المغاربة الذي سارت بذكره الركبان بما ألف عنه من كتب وما حُبر عنه من مقالات، وقد قام بإنشائه اعترافاً بفضل المغاربة السلطان صلاح الدين الذي رأينا ولده الملك الأفضل يتم عمل الوالد فيقوم عام 589/1193 بمنح المغاربة البقعة التي اعتادوا أن يراعلوها فيها هذا إلى عدد المغاربة الذي سمعنا عنهم كترجمة وكخبراء ومقاتلين وأسرى كذلك.

رحلة ابن جبير : منشورات داوود مكتبة الهلال بإشراف لجنة تحقيق التراث، بيروت 1981 ص : 253/252.

د. التازي : أوقاف المغاربة في القدس، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، عدد 3، مجلد أول غشت 1972. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة «الدورات» : القدس تاريخيا وفكريا، الرباط 24/23 ربيع الثاني 1401 رقم الأيداع القانوني 1989/222، مطابع عكاظ، الرباط، جعفر الخليلي : العتبات المقدسة ج 1، بغداد 1972، مطبعة فضالة المحمدية (1981/1401) التاريخ الدبلوماسي للمغرب ج 1 ص : 81-82 رقم الأيداع القانوني 1986/25 مطابع فضالة (المحمدية).

Bernard Lewis : Maghrebis in Jerusalem

عن المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية العدد 1-2 يناير 1990 القدس.

Voyages d'Ibn Battûta : Trad, par C. Defremery et B.R. Sanguinetti, Paris 1968 T. 1, p. (10) 136/137/448.

(11) يلاحظ أن هذا الخطاب هو الذي أشار إليه ابن خلدون في المقدمة عند فصل (قيادة الأساطيل) حيث ذكر أنه يفتح هكذا : فتح الله لسيدنا أبواب المناجع والميامن... وقد سقطت فيه كلمة «أمير المؤمنين».. تراجع المقدمة طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956 ص : 458، وراجع كذلك الجزء السادس من تاريخ ابن خلدون صفحة 514، ولنا ملاحظة على ابن خلدون أنه حرف كلمة عبد الرحمن إلى عبد الكريم. (12) كتاب الروضتين 2، 174 / 175.

(13) مجموع الرسائل الموحدة من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية إصدار الأستاذ ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية، الجزء العاشر ص : 198/191 رباط الفتح 1941 المطبعة الاقتصادية.

(14) ورد في رسالة للقاضي الفاضل حول فتح القدس : قال المنجمون لصالح الدين، تفتح القدس ولكن تذهب إحدى عينيك ! فأجابهم : رضيت أن أفتحه وأعمى !

(15) كتاب الروضتين لأبي شامة ج II ص : 183 - 184.

(16) هذا هو الذي فرقت على رأسه الرايات وقرعت بين يديه الطبول يوم قدم على الجيش في وقعة الأرك التي استشهد فيها عام 591... الاستقصا 2، 168.

(17) البيان المغرب : نشر المستشرق الإسباني ميراندا.

ابن أبي زرع : الأنيس المطرب، دار المنصور للطباعة 1972 ص : 219. H. Terrasse : P. 396.

(18) هكذا ورد في النسخة المطبوعة وهو خطأ فقد عرفنا أن أبا شامة في كتابه الروضتين نص على أن الاقتلاع من الأسكندرية كان بتاريخ 23 رمضان على متن شيني على ما قلناه في الصفحة السابقة.

(19) عينت الحكومة المغربية الشاعر الكبير أبا العباس الكراوي رئيساً لبعثة الشرف التي كانت تخدم الأمير ابن منقذ. وإن الذين يعرفون عن شخصية الكراوي وباعه الكبير في مجال الأدب والشعر وفنون القول ليقدرّون هذا الاختيار من الدولة... ونذكر بهذه المناسبة أنه من الشعراء الذين كانوا يحملون بتحقيق الوحدة بين المغرب والمشرق وهو الذي يقول مادحاً للمنصور :

سينظم السعد مصراً في ممالكه حتى تدوخ منها غمله خلباً !

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى أقصى غراسان يلقى جيشه الرعاب !

محمد الفاسي : شاعر الخلافة الموحدة أبو العباس الكراوي مطبوعات جمعية قدماء تلاميذ مدرسة جوسس 1952. د. التازي : الجانب الدبلوماسي في الوثيقة الأدبية محاضرة افتتاح السنة الدراسية لكلية الآداب بني ملال 1992/9/25.

(20) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لمؤلف مجهول، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد - دار النشر المغربية - الدار البيضاء 1985 ص : 107.

(21) يعني خرج سرّاً وينبغي أن نعيد هنا إلى الذاكرة ما قاله ابن عذارى : «وانصرف ابن منقذ إلى بلاده وقد رأى ووعى في مدة إقامته ما علم به أن بالغرب ملك الإسلام ومقرب الإيمان...»

(22) كتاب الروضتين II ص : 174 - عيون الروضتين، القسم الثاني ص : 240 تحقيق أحمد البيسومي منشورات وزارة الثقافة سوريا - دمشق 1992.

(23) ولد أسامة بن منقذ عام 488 وتوفي عام 584 عن سن تناهز 96 سنة ودفن بجبل قاسيون، كان يكره أن يدعى له بطول العمر وكأنّ لسان حاله يقول :

وإذا دعوت بطول عُمر لا مَرءٍ فاعلم بأنك قد دعوت عليه

(24) سجل عماد الدين الأصفهاني الكاتب رسالة لأسامة ابن منقذ والد مرهف كتبها جواباً على خطاب بعث به إليه القاضي الفاضل الذي ذكر الولد مرهف وكيف أنه يملأ مجالس السلطان صلاح الدين، فأجاب أسامة :

«... أما ما أنعم به من ذكر أصغر خدمه مرهف فهو يخدم بتقيل قدمه والخدام يقول ما قاله أبو الفتيان ابن حيّوس عن خدمة أبي الحسن رحمه الله لحمود بن صالح :

على أنه لا فَلَ غرب لسانه مدى الدهر لا يحتاج مني مترجماً !

وهو يقوم بالجواب عن شريف الاهتمام وجزيل الانعام جمال الدين الالوسي : أسامة بن منقذ بطل الحروب الصليبية مطبعة أسعد - بغداد 1387/1968.

(25) الأعلام الخطيرة لابن شداد 684 تحقيق سامي الدهان المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق 1382/1962.

الدكتور سهيل زكار : الحروب الصليبية (كتب أصلاً بالاغريقية والسريانية والعربية واللاتينية (جزآن) طبعة أولى 1404/1984 دار حسان للطباعة والنشر دمشق.

المقدسي المعروف بأبي شامة : كتاب الروضتين ثم عيون الروضتين في أخبار الدولتين تحقيق البيسومي - منشورات وزارة الثقافة (سوريا) لإحياء التراث العربي 88. 1991.

ستيفن رَنسييمان تاريخ الحروب الصليبية نقله إلى اللغة العربية

د. السيد الباز العربي الطبعة الثالثة 1413-1993. د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية طبعة 1986 وطبعة 1993 مكتبة الأنجلو المصرية.

(26) عرف بهذه المخطوطة الوحيدة «كتاب جمهرة الإسلام ذات النثر والتظام» الموجودة في مكتبة ليدن (God-Lugdun 287) المستشرق أ. روديجر (E- Rodiger) وبين أهميتها منذ عام 1860 ثم عرف به الزميل الراحل

خليل مردم بك في عرض له بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد 33 ج 1 سنة 1958... وقد طبعة بالتصوير مؤخراً معهد تاريخ العلوم الإسلامية فرانكفورت 1407/1986.

(27) حسين أحمد أمين : الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها اعتمد فيه صاحبه على ما جمعه المستشرق الايطالي فرانثيسكو كابريلي مطبعة النهضة المصرية 1983.

محمد حمادة : وثائق الحروب الصليبية ج 5 مؤسسة الرسالة، بيروت طبعة ثالثة 1986.

(28) اشتهر أمر المنصور شرقاً وغرباً بما منحه الله من قوة شخصية وبعد نظر... وقد جاء تلقيبه بالمنصور من أنه كان يطمح إلى الوصول إلى أقصى بلاد في الأندلس كان وصلها المنصور بن أبي عامر في 2 شعبان 387 (10 غشت 997)، تلك : شنت ياقوب (سانتياكو) حيث الكنيسة العظمى التي يحج إليها النصارى من كلّ حذب وصوب...

وقد قرأنا ما أورده أبو شامة مما قيل من شعر في المنصور الموحيدي بما في ذلك الذي قاله السفير عبد الرحمن بن منقذ :

قطعت إليك البرّ والبحر موثقاً بأبي بذاك القطع بالنجح كامل

رجوت بقصديك العلا فبلغتها وأدنى عطائك العلا والفضائل
فلا زالت للعلاء والجلود ثانياً تبلغك الأثام ما أنت آمل

هذا إلى الأشعار الأخرى التي يمكن أن تؤلف دواوين كاملة، وقد كان منها ما قاله في المنصور أحد أعيان الأدياء من مملكة بورنو من قلب بلاد السودان إبراهيم بن يعقوب.

أزال حجابي عني، وعيني تراه من المهابة في حجاب
وقربني تفعلته ولكن بعدث مهابة عند اقترابي !

Terrasse : Histoire du Maroc 1947 T. 1 p. 335.

(29) خصصت مصادر تاريخ هذه الفترة نصيباً هاماً من حيّزها للحديث عن صلاح الدين الذي فرض تهجي اسمه على كل لسان (SALADIN). والذي اعترفت له تلك المصادر بالعبقريّة السياسية النادرة إلى جانب اعترافها بكفاءته القتالية.. وقد ذكر تلك المصادر إلى جانب كل ذلك أنه كان مثلاً أعلى في التسامح ومعاملة الأسرى بالجميل وهو الذي منع المتطرفين من هدم الكنائس، ومن ثمة كان الأوروبيون ينظرون إليه نظرة إجلال. وقد أعطى الدليل للسيدة الفرنجية على أنه شهيد كريم.

أبو شامة : عيون الروضتين في أخبار الدولتين، القسم الأول ص : 281، تحقيق أحمد اليبسومي، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية.. دمشق 1991. ابن أبياس : بدائع الزهور، انظر التعليق ص :

Encyclopédie de l'Islam : Saladin. 17

(30) ينبغي الرجوع إلى رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل نائبه بمصر حول انتصار الأسطول الإسلامي في مياه البحر الأحمر، والجدير بالذكر أن طمع الأفرنج في الاستيلاء على الحرمين الشريفين ظل قائماً أبداً لأنهم يعتقدون أن خطر الإسلام لا يزول إلا إذا تم الاستيلاء على هذين المكانين والإتيان نهائياً على معالمها ونحن لا ننسى الرسالة الشعرية الطويلة التي وجهها إمبراطور القسطنطينية زقفور الثاني فوكاس عام 352-963 إلى الخليفة العباسي المطيع بالله ينذره بأنه يعد العدة لاحتلال مكة.

وأسرع منها نحو مكة سائراً أجر جيوشاً كالبالي السوام
واملكها دهرًا سليماً مسلماً وأنصب كرسياً لأفضل عالم !
وأسري إلى القدس التي شرفت لنا عزيزاً مكيناً ثابتاً بالدعام

كتاب الروضتين 2، 37/35 د. نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية 1969. د. التازي : مراسلة دبلوماسية شعرية في العصر الوسيط بين القسطنطينية وبغداد حسب مخطوطة فريدة في فيينا، فصول أدبية وتاريخية لمجموعة من العلماء والأدياء مهداة إلى ناصر الدين الأسد دار الجليل - بيروت - لبنان 1993/1414.

(31) أبو شامة : عيون الروضتين ج II ص : 133. حسين أمين : الحروب الصليبية 171.

(32) كانت سياسة صلاح الدين تقوم أيضاً على إتلاف المدن والثغور متى شعر بأن عدوه سيتغلب عليها ومن هنا قرأنا عن عدد من المواقع التي أصبحت أثراً بعد عين كعسقلان وغزة إلخ... ابن الجاور : تاريخ هدية المستنصر ص : 263/262 تصحيح أوسكار لوفيكيرين (O. Lofigrien) طبعة ثانية 1986/1407 شركة دار التنوير للطباعة والنشر.

(33) عيون الروضتين II ص : 153.

(34) هذا تعبير ورد في بعض الرسائل نذكر منها على سبيل المثال الرسالة التي بعث بها الأمير الموحدي يوسف بن أمير المؤمنين إلى الطلبة الموحدين والشيوخ والأعيان والكافة بمدينة غرناطة يخبر بمصرع سبع بن منخفاد الغماري وهي من إنشاء أبي الحسن ابن عياش...

وكلمة (فلم يكن إلا كلا ولا) تعبير يكتفى به عن السرعة، أي إن الفترة المنقضية هي كفترة زمنية يحتاج إليها نطق لا ولا. وقد استعملها (مهيار) في قوله :

يا من رأى باللوى برقاً يقدح نيرانه الجنوب

وفي قوله : كلا ولا فيما تراه يطلع أبصرته بغير كيف رأيت الابلأ خواطفا كلاً ولا !

وكذا الحريري أواسط المقامة التاسعة والثلاثين أفلم يكن إلا كلا ولا حتى برز. الخ.
(35) كان من روائع ما سجلته هذه الحروب ظهور دور السباحة في خدمة الأغراض العسكرية وإن الذين يعرفون عن تحمل العرب في مغاصات اللؤلؤ لا يستبعدون ما كان يحكى عن أولئك السباحين الذين كان بعضهم يتعرض للأخطار، وقد قرأنا حديث ابن بطوطة عن الأمير غازي جليبي الذي وهبه الله من خاصية الصبر تحت الماء ما كان يتمكن به من السفر عبر الأجفان لمحاربة الروم... فعندما يتحدث الصدام وينشغل المقاتلون بغوص في الماء ويده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو... وقد انضافت إلى السباحة مكرمة أخرى تلك الكتابة على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها (الشفرة)... وكان في صدر من تحدثت عنه المصادر بهذه المناقب عيسى العوام... عيون الروضتين II ص : 210-211.

Voyages d'Ibn Battuta, T. II p. 350/351.

(36) بهاء الدين ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص : 161/158/516. حسين أحمد أمين : الحروب الصليبية في كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها. مصدر سابق ص : 240/237.
(37) المصدران السابقان.

(38) ينبغي أن نذكر هنا بما أورده بهاء الدين ابن شداد في النوادر : ولم يزالوا على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب... حتى دخلوا سور البلد... وأتعب السهر أهله حتى إن جماعة منهم بقوا ليلي عدة لا ينامون... !
(39) نعتقد أن للزعيم سنقر صلة بأسرة قسيم الدولة آق سنقر جد الملك العادل نور الدين سلطان الدولة التورية، وقد ظل أفراد الأسرة يحتفظون بلقب سنقر ومنهم الأمير سنقر الكبير صاحب القدس ونابلس الذي برز سمه أواخر القرن السادس الهجري على ما نقرأ عند ابن شداد في كتابه عن أمراء الشام كما أن له صلة بالأمير سنقر الأشقر الذي تولى سلطنة دمشق وقد عقد اتفاقية سلام مع السلطان قلاوون في صفر 680 يونيه 1281. وتحتفظ الأسرة السورية بهذا الاسم كأحد رموزها التاريخية، ونذكر منها أسرة السيدة الفضلى الدكتورة صالحة سنقر وزيرة التعليم العالي بسوريا حالياً...

(40) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي في المغرب . 6 ص : 225.

(41) نهض أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى غزو شنترين (بالبرتغال الحالية) في السابع من ربيع الأول 580 (26 يونيه 1184) فنزل عليها وشدد الحصار عليها إلى ليلة ربيع المذكورة 3 يونيه 1184... وقد بعث إلى ولده أبي إسحاق صاحب اشبيلية وأمره بغزو لشبونة وشن الغارات على أنحائها... ويظهر أن غلطا حصل في فهم بعض التعليمات الأمر الذي سبب انفراد العاهل دون جيشه فكانت الطعنة النافذة التي مات في أعقابها وهو في طريقه إلى المغرب يوم 10 ربيع الثاني 580 وهو مدفون في تينمل...

(42) أبو شامة عيون الروضتين، الدراسة القيمة التي صدر بها الكتاب للأستاذ أحمد البيسومي، وأرجو بهذه المناسبة أن أشكر السيدة الأستاذة : نجاح العطار وزيرة الثقافة على تفضلها بإهداء (نور العيون)...

(43) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص : 514 طبعة دار الكتاب اللبناني 1956.

(44) د. سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية الطليعة الرابعة 2/1986، 116.

(45) محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا، مؤسسة الرسالة 1980/1400، ج 4 ص : 82 جزء 6، ص : 224 ج 7، ص : 90.

الرسالة التي فلتت لسائر المؤرخين للعلاقات المغربية الشرقية
وتوجد ضمن مخطوطة جمهرة الإسلام ذات النشر والنظام
للشيزدي المتوفى عام 622=1225.

رساله العاضل

عبد المؤمن صاحب العرب حين وصل ملك المغرب وحضر واعكاه
المؤمن نافع من اناء نفع سليم، وهاذي من انقاء الحق والبرق مستقيم، وصلى الله على
سيدنا محمد الذي منولنا الفسروا دنة، ودل عماد امة على عبادته، وعلى محمد الدين وصيهم والوصي
والخري على السنن الحق وصوابه على سبوقهم ما قصوه، وما اغير لنا ولاخواننا الذين سبونا بالامان
ولعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا اننا انكروا في حليم، وان ما اتم الله به على صالحه من الله وما نبي
هذه القبلة ان الفسروا بلوهم باحنائه وجمع من الحمايين فيه، وان لم يجمعوا في دار زواينه ولم يجعل
شرط محبة المحبة ورب مكانه، هم المتجاوزون على هذا المناريل والمجاورون على صمت المقادير
والملا بطون وما شهدت النواظر، والمتواصلون وما تراكمت النواظر، فلو ان الطوب
تري فلا ترى الا صار لظلم الرجا في الحنة والوقوف من النار، فالامة الامي رسولها صلى الله عليه
وسلم كما سبها بالنبيا المومنون بعضهم اوليا بعض شهادة القرآن، ولست الا بباب
وهم في الدنيا بالسرار وفي الآخرة على السرور اخوان قدام الله وبعده والله عليم حكيم، وعن
العليا السلام والود الصم صر هذا الكتاب جاملا لحنه من الله مبارك طبعه عليه شهاده
سماحته سمحة مهداة الى الملح الحكيم المصنوع، وللقام العظيم المجدد والمصلح العبد
المورود والمسجد المظهر المسمود، اعز الله نصره، ورفع في الملأ الاعلى ذخره، وجمع على التوفيق

أمرة، وأورعه سكر إلى بوجب له رضا الله وشكره. ولما صبر في المقامات التي سبى فيها صهره
 وحرس حوزته وصانها، وأظهر فضيلة وأبانتها، وأخذ بحرمته وأبانتها، ولله سبحانه نعم لا
 تعد ولا تحصى، ولا يعصى صير السكر ولا تقضي، فأول ما حل بها الخواطر، وتشمع منها الواطر
 ما وفاته له من النعم هذه الغلظة والمصاحبة بالكتاب للبدن بحرمه وأبانتها كما مضى حبه
 فلتش المعجزة به مشكورة لسان مستأمن السكر وصهرها هو لا يذكره، فعم السكر معاونه
 ورب السنه ناطقة بالسكر معها لسنة صامته، فبغت هذه المعجزة نعمه فبغت، وما راجحي
 إذا سرحب لكل صدر سرحت فسال الله تعالى أن يعيد على الإسلام عوايدها ومع إلى الخير
 مقاصدها، وما أحررت إلى أبيه أن تنزي والرسول أن يعيد المسرى إلى شواغل الجهاد ناره
 في السكر وأخري في الجهاد، ورجاونا أن يكون الكتاب إليه بالشكر بل الدنيا من العبر وصعب
 والأخري ما وعدت وفوت وكلمة الله وعدت، ويد الإسلام ورويت وما وهنت من
 الكبر فقد أحرزت، وما أحرزت، فبغت لم سبق في الأرض من الكافر من دارا، ولا فوفاها
 إذا، ولا معها لعم وارا، مجدة ما أفضت هذا الخطاب وأرباب الأسباب التي سبى ما حل
 الإسلام والأسباب وزا ما أن ذلك من الخطاب العالي بما منحه الله من قوة، وأوله من شدة

وزفع له في الفلح من خطوه، وتوصل له بالجهاد من خطوه، فخرج إلى معسكر الإسلام من غباره
 وتطلعت إلى أن يرزط طلبة ناره، ولحقنا أنا من حرس عشرة سنة، وإلى هذا التاريخ هذا الكتاب
 حاله حال حاج من عت لا يخله مانع عن كل مبرك لا يزل مستركت لجل الله فلا يوضع لها يورج
 لشوقه فلا يوضع لها عود، فبغت في ظل الجوار، ونعيم البرز، والحساب الأمازغ المذرة، والفلان
 ما نبي الخروج، وطبقت عقيدتنا مع هذا اليوم لفتنا، فبغت فصاعقة هذه المذرة من الذهب
 وفي جلة هذه المذرة من العود ما كان لا يطلع إلا ما كان المصنوع من مواضعها، وخفيف ظهرها من أوزارها
 وإجماد ما كان في القلوب من أوزارها، وإطلاق لسان التمجيد، وزفع لواء النجدة، ونقصه الدرع
 ونقصه السربة، ورنة عام الجاهة يوم المعجزة، ووضع ما كان على الرعايا من أوزام المعازم،
 ونزع ما كان يثقل فيها من الجوزات والمجازم، وتعطيل الخواطر الظالمة، وكما لا يرى الضابحة
 وأحضان الرعية الخطط باستعمال لوكاه الصلابة، وخطر المكرات السباخية، ونوم الحاسب
 الحياجه، فاسقلت الدلائل من أن تعري إلى أن تعري، ومن أن تشرى لها الحياجه إلى أن أجبت، وأجبت
 الكلمة بكل مستأمنها، وحسبت الأحوال وكأنت النائم على الحوت من سبانتها، واسفل السائم
 إلى سلافي السائم لا يشبه شجر من بعد وفاته، وأليه ورحمة الله وضعهم عن أن يحلوه عن
 الخطائب، ونصروا بونه الجباب ففقد الله الإجماع الكلمة فيه، وأقامه سؤوال الجهاد فما

ينفذ ، وكان على البلاد ، وازنه قبايع حاله ومرايت تعبيله . وكان له الحماة بالناس لا بالقوا
 ولا على الحيلة فانقلبت الامور ايضا الى ضيقها ، وصارت المسلمين الى اسهلها والامم الى
 اشدّها . وكان الكفار قد تعصوا لثبوت الله الحرام ، وحرم مدينة عليه السلام . وفسدوها
 بعثره ، وانوا به المستطع مسلم عليه ضيرا . فسقط في ايدي المسلمين ، وراوا الى القلعة
 واللقام والبر طمعت الى اسسراف سرفها عبور المشرّكين فاحذم الله اخذة زانية ،
 واخرى لهم منسفة الحاربه ، واستاصل شافهم فمل توى لهم من اقبه ، وبكت مكة احراق
 للمبارزة ويعق عويز العيص من لم على صاحبه صلى الله عليه وسلم من الرزاق ابريق وصبح الغدوة
 صباح المذبذب وكثر الله المعركام حطيه عليه السلام ، وكان اطفالا للخراب في مغيبه
 كاطقا ما الرزق في شهره ، وكان كف السبع عن داره ككت السكين عن يده ، ولم ير للربوب
 بيتا ومن العبد وذاميه لا يخف سجاها . والارض مائجة هائجة واستقرت اربابها ، والاربع
 الله به من لقما الكبر بجميعه كله وكسره ، وادافته وبال امره ، واستطال عز الاسلام على كل
 كفره ، وبصر صليب صلبوهم المنسوب ، وخرج تاج ملكهم المقيون ، وصرو عواي ظهور
 الخضر ولجاوا الى بطون الخضوب ، ولحاطت القنصة ملكهم فاعانته وروسانه ، كما بما جمعهم
 للالجامع ، وتكلم في ارجلهم من حديد لا شرومانه ، وفي رؤسهم من حديد القل فاطحة ، وتفتح الله البيت
 المقدس ودعى المسلمين منه حقة الذي سلبه الصعب ليمرته الذي عاقب رخصته الحب ، وادى الله
 اما سنة الى اهله ، وخلع المرحلة سرور طرب من شمس ، وسخت من ظله ، وتبع الشام
 مني قراري ، فعزوا وادلاء في سمر كانا المسلمين وسعين والكفر خماري ، ولم يبق في الكافر
 الا تفرقنا احليان وهما طرائس وضوء وبلز بزي وهو انطاكيته . فوجت حديدان تبدل الى الله
 المالبعة السير بالحسي ، واطمعت القران تمام الفتح فقبل لوز الذاب تمام الفتح لا مستلني
 واسمعت الفتح الساجدون فرغ العرب واستصروهم وراسلوا وسلم الى اولئك واستصروهم فلم
 يكل الاكل ولا حتى امدم البحر مثله سفاين تير بلمدان كثير فيها الاكابر من الكمار والاعمار
 من الخمار والمقاله المجهزه ، والقناطر المنطرة ، ولا سلحه والجنين ، ولا قواسه والموت والاف
 القنا والامم الخضر ، والاف الدم طاب الخضر ، ونسلوا من كل جديب ولوا المطالب يوم
 من سبق الطالب لا سفادون بما مقدوف . ولا سطور الى الخيل جمعوا اصحابا وسيرور ولويحنا
 الصعب عديم ذلول والموت في هذا الوجه قبول ، فلا يغفلوا الخارخ مفتربه واستتب جماعه
 من حبيبه . فلا سفاة فجرة الانجابها ، ولا سريرة ارض لا تكت بها من تلبها ، وجصوا
 عوكا وخمر باهم ، فجلدوا على اعنهم للنادق التي على سورها قلناهم ، وفي طربها فترناهم

وكان البحر يندبهم من جموعهم تسعة البحر وكانت القلاع تسرعها بالاسلحهم بل اجتمع اسير
 حتى ملأ سجونهم البر والجزر وغص السهل الوعير وكان القتل خلف جمعهم وكان الحصار
 سدد زرعهم واجبروا الينا من خناد قهقري قريس وعاد فاعنا بكسر من الاولي هجومها
 فاعترضوا ولاخري خائف منها قوم على الموت فبروا وما قصر القتل في المرس عن عسرت
 الذكارة الى الخلف من المتواصلين اليهم ما كاد يكون له اخره وضايقوا عكازا يراج
 جسده صرنا مع الابراج الحربية للصارف ولقد مواء وتقدروا المحققات محاربة لله ولرسوله
 قطعت ايديها وانجلها من خلاف واعرى المسلمون المنبران فحرقوا اهلها من الكفار وحكم
 لسان من البار عن ان ذلك الدار الى الما نالي تعدت البحر من الفجاره وصاق العود والسيلاب
 المقام والبقراءه واخرقت تلك الابراج والمحسفات والستائر وعقدت المن بها تعدت
 به الكفار فندت عوا الجنادف وحيثوا وصروا اونا دم وحيثوا وملكو البحر فوصلهم
 بالبر ونقطعا من البحر واستطروا ملكة ما ن فوصلتهم في البر جمع هاليه العبد واهوال اسعده
 المدد فصار في طريقه محبده به فوسا الترتبان ومصبغة الغراب فقصه من طراده
 وتختلف من اعيانه والفاقه وارسل الله عليه خذ من مجده احدثها الجوع الذي يسمع
 للركاب ويعتقلها والآخر الوبا الذي يرهو لعنه ويعتقلها فصررت المعالم على الطوف
 التايبه بطراجم وصراهم وسبعنا الوحش والطيور السبعيه فقتلهم وموتاهم واسعت
 اسقام وهو ملكهم الى البهر فاسعت منه مدا عرقه وسقاء فضله عن الري فاعصه
 بوجهه واشرقه واطم ذلك الكهر علقه لحن علقه ونجا يديه واخرجه المامنه ولم يخرج
 من حربه وقام ابنه من بعده قايما هو فيه فاعد وورد فيه الى بطاعه من التوفيق بحاله هذا
 فذا صاد زهدا وازبه وهو ان في مرض قوي وعسكر ضعيف فحمل بصير وراي خفيف
 وهم من ابيه فماله واخر من بسبه طريف ولوان المسلمين هذه الحقه امتطولا قويا وحسا
 جريا يطلع الماده عما في يديهم من اللاد لعن عليهم اربعتوا فبلغوا وان بر لو ادر عبر دات
 فلقه اوان يظروا بحقه بل سبعة فانه لا ياكلون من ارض يزرعونها على المطاره ولا
 ياكلون ما اعتله البر بل ما اعتله الحاره ولو كانت بري اجماسا في البحر تمكنا كما يمكن
 في البر لكانوا معتم على العرض المقل في الجهاد لا المحقق كما في البر من الماه بهم الحيس
 المؤلف وكنا كما شاهد المسلمون هذه البخره الغريبه العربيه وسعها وكثرها وقوتها
 وزهها وجردها وقتها وجنتها وسلبها ومركبها وحسبها بعد المسلمون وتعدون
 الكفر من ان العرسان كانت قد سفت لحد كافر مقلولة فان زنا لغيره مسلمه
 موله فان لحد الكفر ان سفت فاتها حصفه مطبوعه وبخره الاسلام ان ابطانها

مسئلة مجمعة ، وان تلك المهمة العالیه من ان يعجز بلاد العدو التي احلها هذا مكتة
المصريين او ان يمتهم باسطول الماء العدو واخره والساعب فصار القول ان كانه صمان
لخوفهم به الى ان كان وطال الا سطر لهذا الامر واستمر الحصار للعدو وحصرنا للعدو ايضا
الرائي الى ان سقر من ذلك الخبايا العربي خدة في البحر ونرفضه منه عزيمة اذ استطعت
طلع البحر فانفضنا الامير مزهف المنقذ لكونه من اهل المهضبة والديانة المحفة والرشاد
فيما نعتنه والنداد فيما يقضه ، والصدق فيما يورده ، والمطون سلك الحجة لا الخجل بها
واثق ولا يقبل السكر الا صادق ، وما دعت لا الى ما في طبعها ، ولا ذكرت الا
بعاد نفعها ، وبعد فان المقصد ظاهر ، وخبر هذا الرسول السابر سابر ، وقد استشر
العضاء مسلم وكافر ، وليس فيها الا الحاج عاذر ، ولها من بعد ما من سكره واليوادر
وما بعد ما من اجر نوم تلي السراير ، وهذا لك سره ما يحضره من عمل يوم كل عمل فيه
حاضره وفرص الاجر مغتمة الامكان وما كل وقت يسبح به الزمان وانها الدعوة
ما التفت قط على مثلها في العرب عن الشرف سبعان يوما كل يوم كاميته بل الله كل
يوم في شانك والله تعالى يومر الامة ملك الجمة ، وسبق الدعوة عندها ما دعيت اليه
من هذه النعمة فخصها منا بالحيه ، ومن بها بالرحمة ان شاء الله تعالى

